في الذكرى الرابعة والعشرين لرحيل شيخ التأويليين هانز–جورج غادمير بين حقيقة الأمل وأمل والحقيقة (11 فبراير 1900–13 مارس 2002)

بقلم جون غروندان

تعريب محمد المفيد

جامعة الحسن الثاني كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية

المغرب

"لقد ارتسخت في قرارة نفسي قناعة، مؤداها أن فيلسوفا من شاكلة غادمير ليس يستحق أن يرتحل عنا؛ لجهة أننا في مسيس الحاجة إلى شاهد مطلق من شاكلته؛ فالفيلسوف ساهم على نحو فاعل وكذلك كمتتبع له سهم وافر في كل المطارحات الفلسفية التي شهدها ق 20".

جاك دريدا

تقديم

لقد قدّر لنا منذ بضع سنين أن نشارك، أهل الفكر والفلسفة، في الذكرى الثالثة لرحيل والد التأويليات المعاصرة؛ عنيت الفيلسوف العلاّمة هانز–جورج غادمير (1900–2002)؛ وذلك بمقالة سطّرنا فيها المعالم العامة والأصول الكبرى التي أودعها –بعد طول صمت– في سفره النفيس "الحقيقة والمنهج". وقد ارتضى ظننا هذه المرة، في ذكرى وفاة شيخ التأويليين الرابعة والعشرين، أن نساهم بعمل ترجمي، عرّبنا فيه مقالة تقريظ للرجل اختطّها أحد العارفين بمضايق التأويليات بعامة، وتأويليات غادمير بخاصة هو المفكر الكندي: ج.غروندان، الذي كانت له صلة وثقى بالفيلسوف الراحل؛ وكان له حظ موفور في التعريف بفكر غادمير، يشهد على ذلك ترجماته البديعة لمكتوبات الراحل ومسطوراته؛ وأجلّها إسهامه في ترجمة عمدة تصانيف غادمير: "الحقيقة والمنهج" إلى الفرنسية، ثم إن للرجل دراسات يعزّ حصرها، أدارها على التأويليات بعامة، وعلى التأويليات الفلسفية عند غادمير بشكل مخصوص؛ أبينها كتابه الذي بسط فيه تاريخ التأويليات ودعاه: "كونية التأويليات"؛ ومؤلفه الجامع لأصول فكر غادمير، وكناه: "مدخل إلى هانز–جورج غادمير"، دون أن نغفل السيرة الفكرية والحياتية التي ترسّمها للراحل؛ والتي احتفت بها الأوساط الفكرية والإعلامية في ألمانيا غاية الاحتفاء، وقد أفاد فيها عظيم الإفادة من مجالساته ومذاكراته الطويلة مع الفيلسوف.

والفيلسوف الراحل، الذي عليه مدار الحديث، هو: هانز– جورج غادمير (1900–2002) Hans-Georg Gadamer، من فلاسفة القرن العشرين المبرزين، وهو والد التأويليات المعاصرة الذي صير هذا المبحث منزعا أساسيا من منازع الفكر الفلسفي المعاصر، ولا مراء أن إشعاع نجم للتأويليات في سماء الفكر ابتداء من الستينيات – وهو العقد الذهبي للتأويليات– إنما منشؤه الصدى الجليل الذي أحدثه مصنفه: "الحقيقة والمنهج" داخل الأوساط الفكرية، ويزيد البعض فيقول: إن الكتاب هو المصنف الأبعد أثرا والأنفد تأثيرا في الفكر الألماني منذ كتاب "الكينونة والزمان" (1927). ومما يجب لحظه ههنا أن غادمير قد أحكم في كتابه بناء نظريته في الفهم، بعد أن مكّنه معلِّمه هايدغر من أسس ذلك البناء. وحسبنا ههنا –في هذه التوطئة– أن نلمع إلى فكرة ملكت زمام تفكير الرجل – وهي التي أدار عليها غروندان مقالته– ومؤداها أن الاستمساك بالأمل لهو بحق من مقتضيات الحياة، مهما تأزرت هاته بألوان الألم والمعاناة، ومبنى الأمل عند فيلسوف هايدلبرغ هو على تطلّب العلاء والحياة الأرقى، فما دامت ثمة حياة أو بقية حياة فثمة أمل وبُقيا أمل، وهذا ما وكّده منذ 1960 في مصنفه المعلوم بقوله: "إن الأمل هو جُلّى الخصائص المميزة للتجربة الإنسانية"، وقد جدّد هذا التوكيد سنة 1998 بقوله: "إن الأمل هو بنية أساسية مقومة لحياة الإنسان، بدونه ليس في الطوق تحمّل أعباء الحياة وأوزارها".

النص المعرب[1]

رب متسائل يسأل: هل في مكنتنا، وهل من المتأكد في حقنا، أن نبسط الكلام في أمر ذكرياتنا ومذاكراتنا مع غادمير؟ وفي الجواب أنه في طوقنا أن نلفي أمورا متكثرة يمكن تجليتها وإظهارها؛ بيد أنه ستكون ثمة أمور أخرى يتوجب حجبها وإضمارها. والواقع أنه لمن المتعسر، بل ومن المحال، أن نبسط الكلام في لقاء بوجه عام وعلى جهة التمام، وعلاوة على ذلك، فإن هذه واحدة من الأفكار الأساسية، بل إنها الدعوى الأمّ التي عليها مدار "فلسفة" غادمير، ومؤداها أن التلاقي الحقيقي وأن الحوار (بله الحقيقة) يتعصّى بالحتم على كل تعبير أو بيان؛ إذ يتوجب الاستغراق في اللقاء والغوص فيه لاكتناه مبناه واستشفاف حقيقته. ولقد جلّى غادمير هذا الأمر في مساق تحليله للخبرة الفنية[2]، حيث أقر أن الأثر الفني يتعصى على كل محاولة تروم استجلاء مضمونه، بتوسل وساطة أخرى غير الفن نفسه، ولئن شئت مثالا فاجهد لكي تفصح بالكلم عن كنه سمفونية أو عمل مسرحي أو أغنية؛ أو أن تبين مغزى منحوتة مخصوصة.

ما من شك أنه في مستطاعنا — بطبيعة الحال — الإقدام على هذه المجازفة؛ غير أن الكونسرتو أو اللوحة أو القصيد يمكنها أن تنهض بذلك على الوجه الأمثل والأجود، وهذه الأجناس الفنية هي – بحق – المقتدرة وحدها على ذلك. وهَبْ أن إنسانا ألمعيا بارعا قيض له – بأعجوبة وبضرب من الاستحالة– أن يحيط على "نحو أفضل" بما رام القصيد قوله، حينئذ يغدو هذا مستفرغا من كل قيمة أو جدوى (والذي يكون هذا شأنه هو – بالطبع – على الندور والقلة)، ويمكن الاستعاضة عنه بنظرية واصفة (وهذا أمر دارج كثير الحصول)، والتلاقي الإنساني – ومثاله التلاقي بين الأحبة — يمدنا بمثال آخر: فليس في الطوق التذاكر عن بعد ومن وراء حجاب؛ لأن المدار – أول الأمر وقبل أي أمر – هو على حضور يتوطّننا؛ وبيان ذلك بالتمثيل والتشبيه أن نتطلّب من شخص ما أن يدلنا على حقيقة أبيه أو أمه أو لغته، وإنه لفي المستطاع دوما أن نجهد أنفسنا للنهوض بذلك استنادا إلى أفكار دارجة أو نظريات شارحة؛ لكن ذلك عزيز المنال؛ فليس الخبر كالمعاينة ولا كالمعايشة التي تتسامى أيضا عن الوعي وتتعالى عليه (ولا مراء أن هذا الأمر هو الذي دعا فرويد واستحثه – بحق – للكلام عن اللاوعي. بيد أن السقطة الوحيدة لفرويد – والذي تأثر بالمنزع العلموي المتسيد في عصره – لربما كانت اعتقاده أنه في المقدور استقصاء اللاوعي وتبطّنه وتجلية خفياته بأسلوب آخر. ولعل هذا المعتقد هو جلّى مفارقات التحليل النفسي: إنه لا يتيح للاوعي أن يكون لاوعيا على التحقيق وبالحقيقة).

إن الطريقة المثلى لبسط الكلام في أمر لقائي– المخلّد – مع غادمير، والذي كان لي المعلّم والوالد [الروحي] والصاحب (بالمعنى الذي ضمّنه شيشرون للصحبة[3]) هي الإعراض عن الكلام وحبس اللسان. والحق أن الكثيرين – خلال الأعوام الأخيرة – حاولوا بضرب من المجازفة

---

[1] النص عبارة عن مداخلة رد بها الباحث على سؤال للمجلة الإيطالية صوفيا عقب رحيل الفيلسوف الذي كانت تربطه وشائج قوية بإيطاليا وخاصة مدينة نابولي التي اعتبرها وطنه الثاني. للاطلاع على نص المداخلة:

www.philo.umontreal.ca/prof/jean.grondin.html

[2] من المعلوم أن غادمير قد أفرد القسم الأول من كتابه العمدة لمسألة تجربة الحقيقة في الفن، وفي ثنايا هذا القسم خاض أولى معاركه الفكرية مع المنزع المنهجي والعلموي، الذي يزعم الاستئثار بالحقيقة والمعرفة. لقد صرف غادمير عنايته ههنا إلى نقد ما سماه: "الوعي الجمالي"، والذي يتبصر الآثار الفنية بما هي موضوعات جمالية فحسب، مجرّدا إياها من كل مضمون معرفي أو مغزى أخلاقي أو فائدة تعليمية. وفي ظن صاحبنا أن هذا المنزع الجمالي التجريدي أثر من آثار المنزع العلموي الذي ينعت بالتهجين والتبذل واللغو كل ممارسة فكرية تخرج عن نطاق الفكر العلمي بالنسبة إلى غادمير: هناك تجربة للحقيقة مطمورة في الفن، وللإبداع الفني قيمة معرفية وتعليمية وليس فقط قيمة جمالية. يقول غادمير: «إن الأثر الفني القائم بذاته والخالص من كل معرفة هو محض تجريد أجوف». إن الفن خطاب حامل للمعنى ورسالة تتوجه إلينا وقوامها تحويل الواقع وتصييره أثرا إبداعيا ذا كثافة وجودية. إن الفن ليس متعة بل هو خطاب ينتزعنا من سباتنا الوجودي ويجلّي لنا الواقع ويحوله، والعمل الفني إذ يحول الواقع فإنه في الوقت عينه يبدل الذات وينقلها من حال إلى حال. وبالجملة فشأن الفن في تهذيب الفكر وتغذية العقل بالمعارف لا يختلف عن شأن العلم، بل قد يزيد عليه لما في الفن من مصاحبة بين الإفادة والإمتاع.

[3] من معلوم الأمور أن الخطيب الروماني قد سطّر رسالة كناها: "في الصداقة"؛ وقد ضمّنها منظوره للصداقة والصحبة؛ مفيدا فيها من نظرية أرسطو. والصداقة عند الحكيمين رباط وجداني نبيل معقود من عواطف إيجابية بين أبرار الناس وفضلائهم، وهذا الضرب من الصداقة سماه المعلم الأول صداقة الفضيلة؛ وقوامها تطلّب الفضيلة (=الأخذ) والجود بالفضيلة(=العطاء). وخلافها صداقتا المتعة والمنفعة؛ وهما زائفتان سريعتا العطب. يقول شيشرون: "إن الفضيلة هي الشرط الذي لا غناء عنه لتحقق الصداقة". للاستزادة:

ركوب هذا الأمر. والمظنون عندي أنه قد غدا من قبيل الموضة والعادة الدارجة- في وقت من الأوقات- بخاصة بعد الذكرى 95 لميلاد الفيلسوف، الانتساب إلى غادمير والاستمجاد بحظوته ومجده الفريدين، وهذا المجد- على الحقيقة - ليس يرجع الفضل فيه إلى فلسفته - وهذا أمر يعسر تعقله ويدق فهمه عند من لم يخبر الرجل- إنما مرتجعه، في الأغلب، إلى عمره العجيب وإلى هيئته - هيئة الحكيم الأخاذة-. وبقدر ما كان من شأن الانتساب إلى هايدغر أن يصير مدار مذمة وملامة، بقدر ما صار— على حين غرة وبضرب من التلطف- (حتى بالنسبة إلى أهل السياسة) الاعتلاق بغادمير، والانتشاب به موضع مدافعة ومجاذبة، وإن هذا الأمر لمن شأنه أن يثير سخرية غادمير الذي حفظ - دوما- لأستاذه منزلة هي في أعلى مدارج الاحترام والتقدير.

والواقع أن غادمير قد أضحى، في مختتم حياته، نجما إعلاميا لامعا، ولربما كان الرجل مجبورا على ذلك، بيد أني أعتقد أن الفيلسوف كان يستعذب هذه النجومية؛ وهو الذي ظل طيلة حياته محجوبا مغمورا بظل هايدغر. لقد أصبح الفيلسوف مجبورا على إجراء مقابلات عديدة، دار السؤال فيها على موضوعات شتى، والذين عدموا كبير معرفة بالرجل كان يتوجسون ويجزعون لحاله؛ لجهة أن اللقاءات الإعلامية، النزِعة إلى الاستثارة والصخب، قد تستدرج الفيلسوف إلى الإفضاء بأقاويل تترجح بين التوفيق تارة والإخفاق تارة أخرى؛ غير أن صفاء طوية الرجل كان له عظيم الإسهام في إكبار شأنه وشأوه.

وخلال الأعوام المتأخرة من عمر الرجل فإن مقابلاته - التي كانت بالنسبة إليه مناسبات للتحاور والتذاكر- قد صارت أيضا مجالا لبسط أصول فلسفته -. [والحق] أن فلسفته، في جملتها، كانت فلسفة أمل على جهة التمام؛ ففي مقابلة له بمناسبة الذكرى الثانية بعد المئة لميلاده (أي قبل أسابيع من رحيله)؛ والتي جرى عرض مضامينها في جل اليوميات الألمانية (في 11 فبراير 2002) عمد الفيلسوف إلى تحديد توكيد ما اعتبره لازمة خلال مختتم حياته؛ أعني تقريره: "إن البشر ليس مكنتهم ولا في طوقهم العيش من غير أمل"، ثم زاد مؤكدا: "إن هذا الأمر لهو الإثبات الذي سوف أجهد نفسي للذياذ والدفاع عنه ما مُدّ لي في الحياة". وإن توصيف هذا الأمر بأنه "الدعوى الفردة" لفلسفة غادمير ينطوي على حظ موفور من الأهمية لا يطيق التبخيس، ولقد عرض للصحف أن أصارت هذا الحديث خطبا وحدثا جللا، ذلك أن عناوين كثيرة - بمناسبة الذكرى الآنفة — قد تأزرت الهيئة التالية: "لقد غدا غادمير - دونما ريب- لسان حال مبدأ الأمل". ولئن حق ذلك، وكان في منتأى من كل شبهة، فإنه يحق من الجهة ذاتها أن تلك العبارة؛ أو قل تلك الدعوى إنما تنطوي- مع ذلك - على شيء من الإغراب والإدهاش، وإيضاح ذلك أن عنوان "مبدأ الرجاء" يعطف فكرنا - بداءة- إلى مؤلف مثل إرنست بلوخ[4] (الذي خلف غادمير في لايبزغ سنة 1948!)؛ أو إلى يورغن مولتمان[5]؛ ومبعث الاستعجاب كون ملاك الأمر في مصنف "الحقيقة والمنهج" لم يكن في الحق مسألة الأمل؛ بل إن الكتاب يتبدى أنه يؤكد تمام التوكيد على أن الوعي يتحدد بواسطة الماضي، على البدل من التنصيص على بعد الأمل أو المستقبل. (وإن هذا الأمر ريم النظر إليه -أحايين كثيرة- بوصفه الاختلاف الجوهري بين فكر فيلسوفنا وفكر هايدغر؛ وهذا ما أقره غادمير بنفسه). ونزيد على ذلك فنقول: إن غادمير لم يطرق كثيرا مسألة الرجاء من أفق "ديني"؛ إذ أن أفق النظر في هذه المسألة كان في عمومه موسوما بطابع ديني، وذلك كما نتبينه -على سبيل المثال - في التراث المسيحي؛ حيث الرجاء يجسد واحدة من الفضائل الإلهية إلى جانب الإيمان والمحبة. والحق أن هذا الأفق أو المنظور كان مغتربا عن فكر غادمير.

Cicéron: L'Amitié. tra. du latin par christine touya. Paris – arle. 1995.

[4] إرنست بلوخ (1885-1977) فيلسوف ألماني ماركسي المنزع، له تواليف كثيرة أجلّها سفره المخلّد "مبدأ الرجاء"؛ وهو في ثلاث مجلدات (1600ص) وقد حرره في منفاه بأمريكا بين سنتي 1938 و1947.

Ernst Bloch: Le principe espérance. paris . Gallimard, t1 (1976) –t2 (1982)- t3 (1988).

[5] لاهوتي ألماني ولد سنة 1926؛ تأثر بالغ الأثر بمصنف بلوخ المتصرّم ذكره؛ ونسج على منواله كتابا كناه "لاهوت الأمل" (1964).

J.Moltmann: Théologie de l'espérance. Tra. Françoise et j.p.Thévenaz 1973.

لقد رام غادمير أن يبسط القول في الأمل والرجاء من أفق دلالي آخر، وقد استلهم ههنا عظيم الاستلهام من مأساة آسخيليوس المكناة: "بروميتيوس"[6]؛ إذ من المعلوم عند كل مطّلع على الميثولوجيا الإغريقية أن بروميثيوس اشتهر بكونه ذاك الذي أمدّ البشر ووهبهم نعما "جليلة" تتمثل في العلم والنار؛ وهما شرطان أساسيان للإبداع والنهوض بالصناعة، غير أن ثمة أمرا أجلّ وأدقّ – حسب آسخيليوس وغادمير– اجتلبه بروميثيوس واجتباه للبشر: لقد حجب عن ذهنهم همّ معرفة ساعة انقضاء أجلهم، وبيان ذلك – حسب آسخيليوس– أن البشر، قبل أن ينتزعهم بروميثيوس من حال الخمود والخمول التي استبدت بهم، كانوا يعيشون ككائنات بئيسة شقية منكفئين على أنفسهم داخل كهوف مظلمة يرتقبون قدرهم المحتوم. إن هذا العلم [الشقي] هو ما صرفه بروميثيوس عن البشر، حينها شرعوا يخرجون من معاقلهم وكهوفهم؛ وابتدروا إلى تعمير الأرض[7] بإقامة البيوت والطرق وإنشاء المدائن وابتداع الفنون والعلوم، وذلك مرده إلى كون أفق المستقبل غدا منبسطا أمامهم، وهذا الأمل هو ما كان آسخيليوس يسميه بالإغريقية رجاء (إلبيس)؛ وهو أمل لم يكن يتلبس عنده هيئة تأمل أو استطلاع لعالم ما بعد الموت؛ بل كان يشير فقط إلى الأمل في الحياة ذاتها، وإلى الوثاقة والثقة التي تقدرنا على النهوض بمشاريع واستشراف أمور، إنه اغتباط يقتضي النسيان والتغافل عن القدر والقضاء. أليست حياة الإنسان في مسيس الحاجة إلى الوثاقة بالمستقبل وعدم الاكتراث بالموت؟ إن هذا الأمل وهذا الرجاء هما عطية بروميثيوس للبشر.

والمظنون عندي أن هذا الأمل هو ما دافع عنه غادمير أيضا، لجهة أنه لم يكن يتوسم فيه محض ظاهرة "سلبية" لانتهاضها على النسيان والكبت. لقد كان ينظر إليها – بالضد – بما هي تعبير خالص وبسيط عن وضعية الإنسان وعن إمكاناته السامية، فالبشر، ولئن كانوا كائنات متناهية فإنه في مقدورهم التفاهم والتوافق، وفي وسعهم أن يتغافروا وينشئوا مشاريع؛ وأن يتفكروا ويتذاكروا في المستقبل؛ وأن يجتمع أمرهم على مبادئ ومثل عليا، وذلك كله لأنهم مستمسكون دوما وأبدا بالأمل.

وعند إعمال قليل من النظر، نستبين أن هذا الاستبصار ليس غريبا كل الغرابة عن كنه "الحقيقة والمنهج"[8]، وعن جملة الفكر التأويلي عند غادمير، فمعلوم عند كل أحد أن الفكرة الجوهرية التي عليها مبنى أثره المخلّد أن الحقيقة لا تنال بمجرد اصطناع منهج؛ ولا تحصّل بخالص التعاطي الموضوعي، ذلك أن ثمة حقيقة أخرى أبعد غورا وآكد أهمية (تلك الحقيقة التي جلاّها كما يعلم الجميع من خلال تجارب الفن والتاريخ واللغة)[9]. وأود القول اليوم إن هذه الحقيقة هي حقيقة الأمل، لأن هذا الأمر يصدق أيضا على الفن والتاريخ واللغة؛ إذ إن هذه التجارب هي

---

[6] كان آسخيليوس – إلى جانب سوفوكليس ويوريبيدس — من أعاظم التراجيديين، ويعتبر الوالد الحقيقي لفن التراجيديا، رفع قواعدها وأحكم بناءها قبل أرسطو. من أجلّ أفكاره أنه في مقدور البشر تحصيل الحكمة؛ غير أن مقتضى ذلك وسبيله الأوحد هو المعاناة: فالحكمة تتولد من رحم المعاناة. من أهم تواليفه أسطورة "بروميثيوس". وتروي الأسطورة أن بروميثيوس كان من الجبابرة الذين كانت لهم حظوة كبيرة عند الآلهة، وقد وهب بروميثيوس البشر نعما جليلة ومن عليهم بعطايا عظيمة أهمها النار التي استرقها خلسة من الآلهة، مما استثار سخط الآلهة فانقلبت محبتهم له كراهة؛ فكان له عقاب أليم من كبير الآلهة زيوس.

[7] مما له دلالة في هذا المساق حكاية ساقها الشيخ عبد الرحمان الصفوري الشافعي في الفصل الذي أداره على الأمل وفيها "مر عيسى ابن مريم — عليه السلام— على جبل فوجد شيخا يعبد الله في الحر والبرد فقال: لو اتخذت بيتا يقيك الحر والبرد فقال: يا روح الله أخبرني الأنبياء قبلك أني لا أعيش أكثر من سبعمائة عام فلم يخترْ عقلي أن أشتغل بالعمارة عن طاعة ربي، فقال عيسى — عليه السلام –: يأتي في آخر الزمان أمة لا تجاوز أعمارهم مائة عام يبنون القصور".
الشيخ عبد الرحمان بن عبد السلام الصفّوري الشافعي: نزهة المجالس ومنتخب النفائس. ضبطه وصححه محمد محمد تامر. دار البيان العربي. ط1. 2005 ص89.

[8] كتاب "الحقيقة والمنهج" هو غرة كتب غادمير، ضمّنه أصول فلسفته الموسومة بالفلسفة التأويلية أو التأويليات الفلسفية، حيث ترقى بفن التأويل من رتبة المبحث الوسيلي أو الصناعة المنهجية إلى رتبة المبحث القائم بنفسه الموصوف بالشمولية؛ لجهة عنايته بظاهرة تستغرق جمعية الوجود الإنساني. ومدار الكتاب على تقرير أمور منها القول بتاريخية الفهم وبتناهيه؛ وإثبات الطبيعة الحوارية للغة والفهم؛ ثم توكيده على أن البحث عن الحقيقة وتحصيلها ليس موقوفا على العلم وعلى مجرد الأخذ بأسباب الفكر المنهجي.

[9] لقد رام غادمير تأسيس تأويليات فلسفية همّها تحرير الحقيقة من سلطان المنهج ومن إسار العلم؛ وهذا ما أدار عليه كتابه العمدة. حيث انطلق — في القسم الأول — من تجديد النظر في الخبرة الفنية؛ وصفوته أن شأن الفن في تثقيف الذهن وتغذية الفكر بالمعارف والحقائق لا يقل عن شأن العلم؛ بل قد يتعداه أحيانا لما يصطحب في الفن من إفادة وإمتاع. ثم اعتقب تحليلياته الجمالية بتفكر نقدي في التجربة التاريخية — ضمّنه القسم الثاني من الكتاب–؛ وقد أداره على جملة موسعة من الأفكار منها تجديد الاعتبار للأحكام المسبقة؛ والقول بالانتماء للتراث وتأكيد فعالية التاريخ وأثره النافذ في الوعي. ثم انتهى– في القسم الثالث — إلى بسط

بمثابة موئل يرتجع إليه لتطلّب الأمل؛ وهي بهذا الاعتبار مقتضيات لتحقيق إنسانيتنا؛ إنها موارد تستمد منها كل تجارب المعنى؛ ذلك المعنى الذي يعتلقنا ويأخذ بمجامع قلوبنا ونعتقد فيه، حتى وإن لم يقدّر لحقيقة هذا المعنى أن تكون- وقد لا تكون أبدا- مدار تحقق بتوسل مناهج العلم التائقة إلى الاستحكام والاستمكان. وليس يمنع هذا من أن تكون تجارب المعنى تلك منطلقات لتحقيق الانفهام والاقتدار على التفاهم. إن الخبرة الفنية تدلنا - بضرب من التخليد- من خلال لوحة أو حكاية على خبرة بالعالم جديرة بالحفظ والتأبيد، وهذه التجربة الحياتية تتبدى ملاذ أمل وموطن تلاق بين البشر. والشأن نفسه يصدق- بالطبع- على التاريخ، بما هو ذاكرة الإنسانية العظيمة، كما ينطبق على اللغة[10] التي تخلّد المعنى وتصيّر التواصل ممكنا، وهذا التواصل الذي ينتهض على أمل هو أمل التفاهم. وما من أحد يحيط على وجه الدقة بمصدر وسلطة وأصل تنفّذ تلك التجارب، أو مدى إمكانية تأسيسها التأسيس النهائي، غير أنه من المؤكد أن خبرات الفن والتاريخ واللغة هي بحق التي تتيح لنا وتمدنا بحظوظ الفهم والحياة والاعتبار.

والحاصل مما تقدم أن ليست كل الحقائق تستمد بطريق التعاطي الموضوعي الذي ينزع إلى الاستحكام في موضوع فهمه. وبعد، لئن تساءلنا: ما الذي نستحكم فيه تمام الاستحكام؟ فإننا نقول: هي -في نهاية التحصيل- أمور نزرة قليلة. لكن، وكما اختط ذلك غادمير في السطر ما قبل الأخير من "الحقيقة والمنهج": إن حدود التحكم ليست هي حدود الفهم والحقيقة: ألسنا نلفي أيضا ضربا من الفهم والتعقل يمتح -بادئة- من عمل التاريخ[11]، ومن الأمل الذي يقتاد الفهم ويقتادنا على السوية؟ إن التاريخ بالنسبة إلى كائن تاريخي ليس شرطا يحد ويصد أبواب المعرفة، وينبغي التسامي عنه بأي وجه، بغية استحصال حقيقة مطلقة تتعالى كل التعالي عنه وعن لغة البشر. إن هذه الحقيقة المطلقة قد حفظها أفلاطون منذ أمد بعيد للآلهة وحدها، وهنا يكون غادمير أفلاطوني المنزع بلا منازعة: فما كل حقيقة تنال بالمنهج أو الاستحكام، فهناك أيضا- وفي المقام الأول- الحقيقة التي توجهنا، والتي نحيا في تضاعيفها أبدا؛ وهي الحقيقة التأويلية بلا مواربة: إنها حقيقة الأمل.

فلسفة في اللغة تتعقل هذه ليس كأداة تنقاد للإنسان وتخدمه بل كقوام للتجربة الإنسانية في العالم، وهنا بسط جلّى أفكاره ومفادها: إن الوجود الذي بالمكنة تعقله هو وجود لغوي".

[10] حقيقة اللغة عند غادمير أنها حوار متجدد ينتهض على جدلية السؤال والجواب، وفي الفهم اللغوي نكون أمام فهم حواري تسائل فيه الذات النص لتتحصل منه أجوبة عن انشغالات الحاضر، فيكون الفهم تفاهما على الحقيقة. وبالجملة لئن جاز أن الوجود الذي بالمكنة فهمه حقيقته أنه وجود لغوي، جاز القول أيضا: إن الوجود الحق للغة هو وجود حواري طرفاه "الوجود التراثي" و"الذات متطلبة الفهم".

[11] لقد ارتقى غادمير بالتاريخ إلى مقام ذات متعالية تكون شرطا لإمكان المعرفة؛ تحلّ محلّ الذات المفكرة في تحصيل الفهم؛ وقد كنّى فيلسوف هايدلبرغ الإشراط التاريخي لفعل الفهم "تأثير التاريخ وعمله". وفي أمره قال: «مقتضى هذا المفهوم عندنا أنه ليس في طوقنا الانسلاخ من صروف التاريخ والنأي عن تقلّباته. والقول الحق أننا نوجد أبد الدهر داخل التاريخ ونكون غائصين في لججه.». وبالجملة، للتاريخ تأثير خفي ونافذ فينا لا نعيه كل الوعي؛ وهذا التأثير لا غناء عنه للفهم. ومن جهة ثانية فالوعي بفاعلية التاريخ يجعلنا نقف على الحدود التي تضعها تاريخيتنا امام كل فهم، وليس صحيحا أن الوعي بحدود الفهم وتناهيه عائقة بيننا وبين الفهم والتعقل بل هو على الحقيقة شرطه ومقتضاه. لإحكام دلالة هذا المفهوم يراجع :

Jean Grondin: La conscience du travail de l'histoire et le problème de vérité en herméneutique. Archives de philosophie. 44; 1981; pp 435– 453.

الحيـــاة

1900 : الميلاد بمدينة ماربورغ ، وهي مدينة جامعية صـــغيرة، و كانت معقلا من معاقل "الكانطية الجديدة".

1918: الحصول على شهادة الباكالوريا.

1922: الحصـــول على شـــهادة الدكتوراه بإشـــراف ب. ناتورب. وعنوانها " كنه اللذة في محاورات أفلاطون".

1923: لقاء غادمير بهايدغر في فرايبورغ الذي أثمر علاقة شخصية ودراسية.

1928: إعداد رسـالة دكتوراه – شـهادة الأهلية بإشـراف هايدغر مدارها على " الأخلاقيات الجدلية عند ألاطون" صار بعدها أستاذا جامعيا بماربورغ.

1933: صعود النازيين إلى الحكم وإعراض غادمير عن إصدار أبحاث في "االسياسيات" والتحول إلى "الطبيعيات" عند الإغريق.

1937: عين أستاذا بجامعة لايبزغ، وبالنظر إلى نقاء تاريخه السياسي

عينته السلطات السوفياتية سنة 1945 عميدا للجامعة.

1947: هاجر جهة الغرب وخلف Kruger بجامعة فرانكفورت.

1949: خلف كارل ياسبرز بجامعة هايدلبرغ، حيث استمر في التدريس بها حتى 1968 حيث صار إلى التقاعد.

1960: صدور سِفره النفيس "الحقيقة والطريقة " بعد أن أفنى فيه طاقته خلال الفترة الممتدة بين 1950-1959 مفيدا من دروس له سنة 1936 كان عنوانها "مدخل إلى الانسانيات".

1968: أحيل على التقاعد وصار بعدها أستاذا زائرا في جامعات عدة شارك في ملتقيات عديدة ونشر العديد من الدراسات والأعمال وتحول في الأعوام الأخيرة إلى نجم إعلامي بارز.

أهم مكتوبات غادمير

- Le problème de la conscience historique. Paris, Seuil, rééd. 1995.
- Vérité et méthode. Les grandes lignes d'une herméneutique philosophique. Édition intégrale, tr. Fruchon, Grondin et al. Paris, Seuil, 1996.
- L'herméneutique en rétrospective. 1ère et 2nde parties. trad. J. Grondin, Paris, Vrin, 2005.
- Esquisses herméneutiques. trad. J. Grondin, Paris, Vrin, 2004.
- Les chemins de Heidegger. Paris, Vrin, 2002.
- Herméneutique et philosophie. , trad. J. Greisch, P. Fruchon, et al., Paris, Beauchesne, 1999.
- La philosophie herméneutique. Paris, PUF, 1996.
- Herméneutique : traduire, interpréter, agir. Textes de H.G. Gadamer et B. Welte. Saint-Laurent, Québec, Fides, 1990.
- L'art de comprendre. Écrits I, Herméneutique et tradition philosophique. Paris, Aubier, 1982.
- L'Art de comprendre. Ecrits II : Herméneutique et champ de l'expérience humaine, trad. I. Julien-Deygout, Ph. Forget, P. Fruchon, et al., Paris, Aubier, 1991.
- Au commencement de la philosophie : Pour une lecture des Présocratiques, trad. P. Fruchon, Paris, Seuil, 2001.
- Interroger les Grecs : Études sur les Présocratiques, Platon et Aristote, trad. D. Ipperciel, sous la direction de F. Renaud et C. Collobert, Montréal, Fides, 2006
- Qui suis-je et qui es-tu ? Commentaire de « Cristaux de souffle » de Paul Celan, trad. E. Poulain, Arles, Actes Sud, 1987.
- *Langage et vérité*, trad. J.-C. Gens, Paris, Gallimard, 1995.
- L'Actualité du beau, trad. E. Poulain, Aix-en-Provence, Alinéa, 1992.
- Années d'apprentissage philosophique, trad. E. Poulain, Paris, Criterion, 1992.
- L'Idée du Bien comme enjeu platonico-aristotélicien, suivi de Le savoir pratique, Trad. P. David et D. Saatdjian, Paris, Vrin, 1994.
- L'Héritage de l'Europe, trad. Ph. Ivernel, Paris, Rivages, 1996.
- Philosophie de la santé, trad. M. Dautrey, Paris, Grasset-Mollat, 1998.
- L'Ethique dialectique de Platon : interprétation phénoménologie du Philèbe, trad. F. Vatan et V. von Schenck, Arles, Actes Sud, 1994.